

الأزهر والأصلاح

للأستاذ محمد السيد أحمد الشال

- ٢ -

تكلمت في المقال السابق عما أراه يحاك الأزهر مما ظاهره أنه توسع في التعليم وتشعب في الثقافة وإنى لا أعتب على القائمين بشئون التعليم أن يفكروا مثل هذا التفكير ويتجهوا مثل هذا الاتجاه، فلهم في هذا بعض المذراعات وقوف الأزهر وعدم مساهمته للتطورات الحديثة في الدراسات وطرقها، وإنما أعتب العتب كله على رجال الأزهر أنهم لم يرسخوا لأنفسهم نهجاً من الإصلاح يسبرون عليه، ولا يكفي أن يفكروا فيه في غدوم ورواحهم وأن يكون شغلهم الشاغل كما ذكر الأستاذ دنيا ما دام لم يظهر لهذا التفكير وهذا الشغل أثر يتم عليه.

واقعد بدأ الأستاذ الراغب عليه رحمة الله الإصلاح ورسم له من الطرق ما اعتقد أنه ينهض بالأزهر ويجعله يؤدي رسالته؛ ثم مرت مدة من الزمن وقف فيها رجال الأزهر على الكثير من المآخذ على هذه النظم مما تسمع حديثه في الكثير من مجالسهم وترى آثار التبرم والسخط بادية على الكثير من رجاله. ولكن هذه الأحاديث لا تعدو أن تكون تفرجاً عما في النفوس ثم لا يكون لها من الأثر ما يتجاوز هذه المجالس. وقد يكون هناك فريق إذا ما ذكر أسامه الإصلاح أراح نفسه من حديثه بقوله أنه لم يعض على هذه النظم من الوقت ما يكفي للحكم عليها. وإذا استعرضنا قانون الأزهر كما قدمه المرحوم الأستاذ الراغب وصدر به المرسوم الأخير للإصلاح ونظرنا ما وضعه من النظم في مراحل التعليم المختلفة نجد بصغة إجمالية قد أنقل طالب الابتدائي بالعلوم الرياضية بعد أن منعه من القسم الثانوي. وفي رأبي أنه لو بقيت الرياضة موزعة بين الابتدائي والثانوي كما كان الحال قبل صدور المرسوم الأخير لكان أفضل وأجدي على الطالب وأنفع له. وأما توزيع باقي المواد سواء منها المواد الأزهرية أو المواد الاجتماعية في القسمين فهو توزيع حسن يتناسب مع مقدرة الطالب وكفايته في المرحلتين.

بقى علينا أن ننظر إلى توزيع المواد في السكيات المختلفة،

فأقول إن هذا التوزيع قد راعى فيه واضح القانون جهة الاختصاص فقط وأهل ناحية أخرى هامة وهي شدة الصلة وقوة الارتباط بين المواد الأزهرية بحيث لا ينفك البحث في إحداها من أن يجز الباحث إلى أن يتعرض إلى قضايا مختلفة من المواد الأخرى لا غنى له عن استيعابها حتى يمكن أن يتم بحسنه وأن يحققه تحقيقاً علمياً دقيقاً، وإذا لم يكن الباحث ملماً بالأساس تماماً بما يتعرض له من قضايا المواد الأخرى لا يمكنه أن يتم بحسنه على الوجه الذي يتطلبه التحقيق العلمي. والأمثلة على هذا كثيرة يدر كها جميع رجال الأزهر. فدارس التفسير لا يمكنه أن يستغنى عن دراسة الأصول فضلاً عن دراسة مواد اللغة. ودارس الأصول لا يستغنى عن دراسة المواد اللغوية أيضاً. وطالب كلية الشريعة وأصول الدين لا يكفيه في دراسة اللغة ما حصله في المرحلتين الابتدائية والثانوية، ونحن نعلم أن الدراسة فيهما تكاد تكون تلقينية. أضف إلى ذلك تركه في هذه المواد في مرحلة السكيات مما يجعله يندى الكثير من قضاياها. والدارس في كليات اللغة وأصول الدين لا يستغنى عن دراسة الأصول بل هو في أمس الحاجة إليهم حينما يدرس شيئاً من التفسير والحديث. ولا يكفي ما هو مقرر فيهما من المذكرات الموضوعية في هذه المادة فهي لا تمدو سرد القضايا دون التعرض لفهمها وعرضها عرضاً يتذوق منه الطالب جمال هذه المادة ويدرك حاجته إليها في الكثير من المواد.

ولا يلبق بطالب كلية اللغة والشريعة أن يتخرج وهو لا يعلم شيئاً عن أصول الأديان والمقائد مكتفياً بما عرفه من دراسة القليل من علم التوحيد في كتبه الموروثة في المرحلتين السابقتين وهي كتب لا تشفى غلة ولا تبل صدق.

هذا من ناحية القصور العام في توزيع المواد في السكيات؛ وإذا انتقلنا إلى الدراسة في التخصصات ونظرنا إلى المواد المقررة في تخصص التدريس مثلاً نجعلنا كيف يرضى رجال الأزهر لناشئته أن يضييع من سنى حياتهم سنتان في دراسة طرف من علم النفس والتربية وتاريخها وبعض المواد الأخرى مما يمكن أن يستوعبه الطالب بأقل مجهود أو بدونه في سنى الدراسة في السكيات، وكان الأولى أن ينظم هذا التخصص وأن يزداد في سنى دراسته سنة ثالثة وأن يقرر فيه دراسة بعض المواد الأساسية في السكيات المتقدمة دراسة تمتاز عن دراسة السكيات بسعة البحث والتعمق

وحقيقتها . ولو كان هذا بقدر حتى ينبه الذهن إلى تجنب الخطأ
لسكان حسناً ، أما أن يكون هذا سبباً في صرف كل الجهود إليه
فهذا ما لا يقره منطق .

ونحن الآن نرى نطلع المسلمين إلى الأزهر وساحته إلى علمائه
بمهمتهم دينهم ويهدونهم إلى شربهم . وليس كل المسلمين
ولا غالبيتهم ممن يعرفون العربية أو يفهمونها . فالأزهر الآن
في أشد الحاجة إلى دراسة اللغات الأجنبية في جميع سنى الدراسة
حتى يمكنه أن يؤدي رسالته على الوجه الأكمل سواء في المحيط
الإسلامي أو في المحيط العالمي . فالعالم الآن على مفترق الطرق يتطلع
إلى غير النظم التي تكفل الاستقرار والسلامة لجميع الناس ،
ويتخبط المفكرون منهم في بيداء التفكير والبحث عليهم
يقفون على طريق يوصل إلى الغاية ؛ وليس هناك من طريق موصل
إلا طريق الإسلام .

وأني للأسف أن يهتدى إلى ذلك إذا لم يتم رجال الأزهر بنشر
دعوتهم وتبيين حقيقته ودحض المقترحات التي يذيعها القرضون أو
الجاهلون عن الدين مما يفتر كل يوم باللغات المختلفة ولا نعلم من
أمره شيئاً .

وفي السكوت على نشر مثل هذه المقترحات وعدم تجلية حقيقة
هذا الدين للعالم تقصير عن أداء رسالة الأزهر ورسالة الإسلام .
ولقد اتخذ كثير من كتاب الغرب حال المسلمين ومأم عليه
من جهل دينهم وانحراف عنه وتأخرهم وانحطاطهم حجة يقوون
بها مقترحاتهم ويؤيدون بها دعاوهم في أن هذا الدين لا يصلح
لتنظيم المجتمعات ولا لأسعاد الجماعة .

هذه ناحية ، وهناك ناحية أخرى وهي أنه يوجد بين أساتذة
المكتبة الأزهرية كثير من الرسائل في المواد المختلفة تقدم بها
إما طلاب منتهون لتيسل الشهادات النهائية ، وإما أجلة العلماء
للحصول على عضوية هيئة كبار العلماء . ولقد عني على هذه الرسائل
الزمن وعلاها كثير من النبار ولا يسمع أحد بها ولا يطلع أحد
على ما فيها ؛ ولم لا تتخذ هذه الرسائل نواة لأصلاح الكتاب ؟
وهل هذه الرسائل لا يرتفع قدرها إلى قدر ما كتب منذ
ثمانية قرون أو يزيد على طرق من البحث وأساليب من التفكير
تناسب والمصور التي كتبت فيها .

وإذا لم يكن لهذه الرسائل من التقدير ما يجعلها أرفع شأنًا

فيه وتنوع طرقه مما يمد الطالب إعداداً كاملاً ؛ وأظن في وجود
هذا التخصص على هذا النحو استغناء عن تخصص المادة .

وهكذا لا يمدد الباحث في شأن التخصصات الأخرى جميعها
من أن يرى بعض النقص الذي يستوجب تداركه .

وأني إن أذكر ذلك لا أدعو إلى إدماج الكليات والرجوع
بالأزهر إلى نظامه القديم ، ولكنني أقول أن الأمر الآن يراعى
في تقسيم الكليات صلة المواد بعضها ببعض فوق ما هو صراعى
من جهة الاختصاص ، فلا يقطع بين الطالب وبين جميع المواد
الأساسية في كلية أخرى ؛ بل يدرس في كل كلية ما لا يستغنى
عنه عالم أزهري ورسالته الأولى الدعوة إلى هذا الدين والدفاع عنه .
فيجمع في جميع الكليات دراسة أصول الأديان جميعها وما طرأ
على فروعها المختلفة من تغيير أو انحراف أو مجود وأسباب ذلك ،
وحال المسلمين الآن والوسائل الناجمة لتوحيد كلمتهم ورجوعهم
إلى دينهم . كما يدرس في كل كلية من القضايا الأساسية في كل
مادة أصلية في كلية أخرى ما عسى الحاجة إليه دراسة توسع ويبحث
واستيعاب لا دراسة سرد قضايا ونعداد أحكام كما هو الحال
في دراسة الأصول في كليات اللغة وأصول الدين . وتدرس جميع
المقررات في الكليات ولا يكتفى بدراسة البعض والامتحان فيه
كما هو الحال الآن . بل تقسم المادة إلى قسمين قسم يقوم بدراسته
أستاذ المادة يتناسب مع الزمن المقرر لها بحيث يلتزم الأستاذ
بالانتهاء منه ، وقسم يترك للطالب تحصيله واستيعابه بحيث يكون
الامتحان في جميع المادة . وهذا العمل فوق فائدته التامة للطالب
من ناحية دراسته لكل المادة له فائدة أهم وهي تمويده الاعتماد
على نفسه في دراسة ما يترك له مما يكون له شخصية مستقلة
لا تركز في كل ما بين لها إلى السؤال والاستفهام . بل تركز
إلى البحث والتنقيب .

ورأى أيضاً أن ينظر إلى الكتب المقررة نظرة فاحصة ليختار
لكل مادة من الكتب ما تكون بعيدة عن الحشد والتعقيد
والاستطراد وسرد المسائل التي لا يستفيد منها الطالب إلا تضيق
الوقت وتمويده التشكك في كل ما بين له من بحث . وأي فائدة
تمود على الطالب الذي يريد دراسة مادة من المواد من صرف جل
وقته أو كله في تصحيح عبارة أو الوقوف على خطأ تعريف أو معرفة
الأولى إلى غير ذلك مما يضيع عليه الكثير من معرفة قضايا المادة

مما كتب في تلك المصور فلم قدرت من اللجان التي نظرتها تقديرًا استعفى صاحبها بسببه أن ينال شهادة أو يظفر بشرف المضوية ؟

ولا أدري سببًا لإعمال هذه الرسائل اللهم إلا أن تكون هناك عقيدة لتقدّس الآثار فظن من تمسك بها أن الخير كل الخير في التعلق بها ، وأن الشر كل الشر في الخروج عليها ، وأتباع ماجد من البحوث والأفكار . ولعل في الرجوع إلى هذه الرسائل وبعثها وتقدير ما يصلح منها للدراسة تشجيعًا لمن يريد البحث وحثًا له على بذل كل في وسعه لوضع ما يقدر عليه فيما برز فيكون في هذا العمل تشجيع للتأليف والمؤلفين وتوسعة للبحث وإنهاض للباحثين فيتمتع بحال التفكير ويكثر الإنتاج الأزهرى كما كثر الإنتاج الجامعي .

هذا قليل من كثير مما يتعلق بالبرامج العامة للدراسة وما يتعلق بالكتاب .

أما إصلاح الطالب فيكون بإصلاح نظم الامتحانات والرجوع بها إلى رفع درجة النجاح إلى ٦٠٪ وعدم السماح للطالب بدخول الدور الثاني إذا قصر في أكثر من مادتين . وفي المادتين لا يسمح له بالامتحان إذا لم يحصل على نصف النهاية الصغرى لكل مادة . وأخذ به الحزم والشدّة في جميع التشكيلات ويكون هذا بالعقوبات الرادعة النافذة .

وأما إصلاح المدرس ففي إصلاح البرامج ونظم الدراسة والكتاب ما يكفي لإصلاحه . وهناك ناحية كان لها شأنها في المصور الحالية واستمرت إلى عهد قريب وهي الصلة العلمية بين الطالب وأستاذه حتى كان الطالب يفخر بأنه تلميذ على فلان . وكان لكل أستاذ من المصنفة العلمية والفكرية ما يظهر أثره في مدرسته وتلاميذه . وغير شاهد على ذلك المدرسة القريبة العهد بنا وهي مدرسة الأستاذ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الإمام الشيخ محمد عبده . ولقد امتازت مدرسة الشيخ محمد عبده بما امتاز به أستاذاها من استقلال الفكر وتعمق البحث والتجرد من الجلود وعدم التقيّد بالموروث . فإذا أمكننا أن نجعل هذه المدارس فأحيائها لا يكون إلا على يد هيئة كبار العلماء بتكاليف رجالها بإلقاء دروس للعلماء الناشئين ، ولا يقل ما يلقيه كل منهم عن درسين أو ثلاث في الأسبوع يتخذ كل منهم مادة من المواد يدرسها دراسة توسع ويبحث دون تقيّد ببرامج أو خضوع لزمّن ، ويكون له

في دراستها طابع خاص يمتاز به . وفي هذا العمل من الفوائد مالا يحصى على من أدرك الأستاذ الإمام وساعده الحظ بالجلوس في مجالسه والاستماع إلى دروسه . ولا زالت الصلة العلمية بين الأستاذ وطلابه المنتهين موجودة في النظم الجامعية الغربية . وكانت هذه الصلة سببًا في المحافظة على الطابع العلمي والجامعي وهذه بضاعتنا نبت زرعها وترعرع بين جدران الأزهر واستمر حقبًا طويلة ثم تركها الأزهريون ففقدوا كثيرًا من طابعهم الجامعي ! فهلا رجعنا إليها حتى نصل ما انقطع ونجني ما درس .

ولا يكفي ما يقال من أن كل عضو من أعضاء الهيئة الموقرة يقدم بحثًا في كل عام ، وأى أثر ظاهر لهذه البحوث ؟ وهل سمع بها أحد أو أطلع عليها أحد أو استفاد منها أحد ؟ وهل هذه البحوث أصليت كتابًا أو هذبت مادة أو تهرست لما يعين للعالم من شا كل اقتصادية أو اجتماعية أو كشفت ما غشاها من الحاد أو هدته إلى الخروج من حيرته .

وهل يكفي أن يقال إن تراثنا التشريعي غني بما حواه من أفكار القدامى وأبحاث السلف . وإذا كان غنيًا فلم لم يتخذ منه الباحثون أداة للإصلاح التشريعي العام ؟ ولم لم يعملوا على عقد الصلة بين هذه الأبحاث وبين ما يمرض للناس من نظم مالية واقتصادية وصلات عمرانية واجتماعية وتطورات أخلاقية ؟

وهل يكفي أن نتفنى بأبحاد السلف ونأسف على أيامهم ، ونقف حيارى لا نهتدى إلى سبيل والعالم يتقدم ويحدث فيه من الأحداث ما يقتضي تطور التشريع وتغيير الحكم ؟ ونكتفى بأن نقول إن التشريع الإسلامي صالح لكل زمان ومكان . وأى صلاحية تبقى له إذا تركناه كما هو يسرد قضايا قد ذهب زمنها وبعدد أحكامها قد ولّى رجالها وتختلف فيما بيننا هل باب الاجتهاد مفتوح أم ذهب زمنه ورجاله ؟ لا ، لا بليق بمن يبنى البقاء أن يقف والعالم يتطور . ولو بقى على حالة أخشى أن يذهب به أعصار أو يتخلف عن الركب .

ولعل بهذا أكون أدبت بعض ما يجب على نحو الأزهر الذي أعزّز بالانتساب إليه وحققت بعض دعوة الأستاذ دنيا . هداانا الله وإياه إلى معرفة طرق الإصلاح والأخذ بأسباب النجاح

محمد سبر أحمد الشال

مندوب الأزهر لتدريس العربية بكلية القامد الإسلامية بيروت - لبنان